لم يفهم الهجان السوداني الكلمات... هكذا اعتقد الصلفوح فتشجّع وقال له: الله يخليك... ابعد شوية... بدنا نستفتح.

ولم يكد الصلفوح ينهي كلماته حتى صفر الكرباج في الهواء وارتطم بوجهه. ولحظات اخرى، انهالت فيها الكرابيج فوق أجساد الزحام البشري، وبدأت تلك الجمال العجيبة تدوس كل الأشياء بسيقانها الطويلة، اهتاجت هي الاخرى... وبدأ يهطل من أشداقها زَبَد أبيض، وتصايح الأطفال مذعورين، وولولت النساء، وانفض السوق في حالة قصوى من الذعر والفوضى والعذاب... وعندما التأم المصلون، بعد ذلك، في باحة المسجد لأداء صلاة الجمعة، وصعد إمام المسجد إلى المنبر لإلقاء الخطبة صدر عنه خطأ غير مقصود ربما... فبدلاً من أن يقول: أيها المسلمون؛

قال: أيها الفلسطينيون.

ثم إنه بعد ذلك واصَل الكلام:

حتى لا نضيع في الرمل، حتى لا يقتلنا جنود الهجانة والفرسان ورجال الدرك والأمن وفرق الملاحقة... حتى لا ننسى أسماءنا، حتى لا ننسى الوطن، كان يتعين على الفلسطيني أن يتحول إلى طائر يحمل في منقاره قشة مشتعلة ويلقي بها في الحقل الفسيح لتشتعل النيران.

٣ ــ تلك الأيام.. لا تغادر الذاكرة

يقول أبو علي مهدي بسيسو، وهو واحد من كوادر فتح وقد قضى في سجون الاحتلال الصهيوني عشر سنين: «ان أكبر عناء للانسان داخل السجن... هو السجن نفسه... المرمق... والفقر... والتعذيب... والاستفزازات المستمرة... هي كلها أشكال من العناء... لكن قمة العناء للانسان هي السجن نفسه».

ويقول أبو علي مهدي بسيسو أيضاً، في حديث ذكريات عن السجن: «ان جدران الزنزانة تكاد تخنق الانسان... وليس من وسيلة لمواجهة هذا الحصار... سوى الرحيل. أن يرحل السجين خارج جدران الزنزانة الخانقة... ولكن كيف؟.. ليس هناك سوى الذكريات... وجوه الأهل والأصحاب والاحبّة... ونوافذ البيوت... وامتداد الطرقات... وإيقاعات المطر في ليلة هاطلة... وتلك الحكايات التي كانت مدفونة في قاع الذاكرة... تنهض من جديد... بكيت في السجن مرة... بعد الاضراب الذي نظّمه السجناء في بئر السبع سنة ١٩٧٣... فصدر القرار بتفريقنا إلى سجون مختلفة... تلك اللحظات... لحظات الفرقة جعلت قلبي يمتلىء بالبكاء... وضحكت في السجن مرة... كان ذلك في سنة ١٩٧٢ ... عندما جاؤوا إلى معتقل بعجوز يبلغ من العمر ٧٠ عاما اسمه كامل عطا الله... وسألوه: هل إذا خرجت من السجن ستساعد المخربين؟

«قال لهم ببساطة أدهشتني: نعم... سأساعدهم.!

« — لماذا؟

«فقال لهم بنفس البساطة المدهشة: إذا لم أساعدهم... فانني بعد ذلك أموت كافرا...